كيف تربت الجماعة الأولى (٢)

الأخ محمد قطب

كيف توصل القرآن إلى استنبات البذرة الحية الجديدة للعقيدة في نفوس المؤمنين ؟

إنّ للقرآن طريقته الخاصة في لمس القلوب واستجاشة وجدانها إلى حقيقة الألوهية .

﴿ ... **صُنْعَ اللَّهِ الَّذِي أَتْقَنَ كُلَّ شَيْءٍ** ... ﴾ [النمل : ٨٨]

﴿ **صِبْغَةَ اللَّهِ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ صِبْغَةً** ... ﴾ [البقرة : ١٣٨]

إنّ القسم الأكبر من القرآن المكي منصب على التعريف بحقيقة الألوهية ، والقسم الأكبر من التعريف بحقيقة الألوهية منصب على عرض آيات القدرة في الخلق . في السموات والأرض ، ﴿ **وَفِي أَنْفُسِكُمْ** ... ﴾ . ثم في الموت والحياة ، وإحداث الأحداث وتدبير الأمر وعلم الغيب والقدرة القادرة التي لا يعجزها شيء في السموات ولا في الأرض ..

وتلك هي منافذ العقيدة الفطرية التي أودعها الله في الفطرة لتتنبه إلى خالقها ، وتتوجه إليه بالعبادة ..

﴿ **وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى شَهِدْنَا** ... ﴾ [الأعراف : ١٧٢]

ولا نعلم نحن كيف أخذ الله على البشر ميثاق الفطرة ولا متى تمّ ذلك . ولكنا نعلم أن في الفطرة هذه المنافذ ، تلجئها إلجاء للبحث عن الخالق والتوجه إليه . فالكون بضخامته الهائلة ، وبدقته المعجزة التي لا يختل فيها شيء قيد شعرة ، وظاهرة الموت والحياة ، وظاهرة حدوث الأحداث وتواليها ، ورغبة الإنسان في معرفة الغيب وعجزه عنها ، ورغبته في السيطرة على كل شيء وعجزه عنها .. كل أولئك يوقظ الفطرة إلى وجود الخالق الذي خلق الكون بضخامته وبدقته ، والذي يحيي ويميت ، والذي يحدث الأحداث ويدبر الأمر ، والذي يعلم الغيب ، والذي لا يعجزه شيء في السموات ولا في الأرض ..

ولكن حس الإنسان يتبلد بالإلف والعادة ، فيفقد التأثر بالشحنة الحية المؤثرة التي تهز المشاعر وتحول السلوك .. فيجيء القرآن –بطريقته الخاصة– فينفض الركام عن الفطرة ، ويزيل التبلد الذي يحدثه الإلف والعادة كأنما يكشف

أعصاب الحس لتتلقى الشحنة كاملة كما تلقتها أول مرة ، فيهتز الوجدان وتنفعل النفس .. ويحدث الأثر المطلوب !(1) .

ولا نستطيع هنا أن نعيد هذا الأثر أو نحاكيه ! فهذا شأن القرآن ! والقرآن هو أداة التربية الإسلاميّة الأولى حـــين يتلقاه الإنسان بقلب متفتح ، فيتلقى من الشحنة المقدسة التي أودعها الله فيه :

﴿ كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُو الأَلْبَابِ ﴾ [سورة ص : ٢٩]

﴿ أَفَلا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا ﴾ [محمد : ٢٤]

ومن أجل هذا –وغيره– يوجب الإسلام على المسلمين قراءة القرآن وتدبر آياته ، فهو معين التربية الأولى ومعين الحياة ..

* * *

هذه المعرفة الحية بالله ، بصفاته التي يعرفه بها القرآن ، أنه الخالق البارئ المصور ، الرزاق الضار النافع المحيي المميت ، صاحب اليوم الأول واليوم الآخر .. هذه المعرفة هي اللبنة الرئيسية في التربية الإسلاميّة ، لا شيء قبلها ، وكل شيء بعدها يجيء .

ومما له دلالة بارزة في منهج التربية الإسلاميّة أن درس العقيدة لم ينقطع بانتهاء الفترة المكية ، بل استمر حتى بعد تكّون الدولة المسلمة في المدينة ، وبعد رسوخ الإيمان في قلوب المؤمنين ، إلى حد القتال في سبيل العقيدة ، والاستشهاد في سبيل الله !

كل الفرق أنه بعد أن كان الدرس الوحيد في القرآن المكي صارت معه دروس أخرى في المدينة ، من تشريعات وتوجيهات وتنظيمات وتوعية سياسية وإعدادات لمعركة لا إله إلاّ الله : وأنه بعد أن كان يلقن هناك على سبيل التأسيس . صار يلقن هنا على سبيل التذكير ، بعد أن ترسخت قواعده هناك .

ولكن استمرار تلقين الدرس للمؤمنين **بعد أن آمنوا** هو الأمر ذو الدلالة الهامة ، لأن معناه أن هذا درس لا ينتهي أبداً مهما كانت حالة المؤمن من الإيمان .. فلا بد من التذكير الدائم حتى للمؤمنين .. والله هو خالق هذه الفطرة والعليم بمساريها ومسالكها ، وما هي في حاجة إليه لتقويمها وإصلاح ما ينحرف منها ، فإذا ظل يذكر المؤمنين بالعقيدة وهم مؤمنون فلأنه يعلم ثقلة الأرض وجاذبيتها ، وحاجة الناس إلى الجهد الدائب والتذكير الدائم لموازنة ثقلتها . ولأنه يعلم أن الشياطين إنما تتلقف الغافلين !

تلك المعرفة الحية من شأنها أن تربط القلب البشري بالله ..

فأين يذهب القلب البشري بعيداً عن الله ، وهو معه أينما كان ، في صحوه ونومه ، في يقظته وغفلته ، في إقباله وإدباره ، لا يغيب منه شيء عن علم الله الذي لا يعزب عنه مثقال ذرة في السموات ولا في الأرض ؟

أين يذهب من علمه الشامل ومن حسابه الشامل كذلك ، وهو يحاسب على الصغيرة والكبيرة ويجزي به في يوم القيامة :

﴿ فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ ۞ وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ ﴾ [الزلزلة : ٧-٨]

ذلك هو وجدان الخشية والتقوى الذي يعمر قلوب المؤمنين .

ولكن القلب المؤمن إذ يخشى الله يحبه كذلك . فالله هو الرؤوف الرحيم . وهو الرب العطوف الغفــور . وهــو الذي يرعى البشر ويهديهم إليه ، ويرزقهم من الطيبات ويمنحهم من النعم ما لا يستطيعون إحصاءه لو أحصوه .

ومن خيطي الخشية والرجاء يتعلق القلب البشري المؤمن تعلقاً دائماً بالله .. فيكون ذلك هو المعين الأول للتربية الإسلاميّة ، وذلك هو الأثر المباشر لتدبر القرآن بصفة عامة ، والمكيّ بصفة خاصة ، والأثر المباشر لمصاحبة القرآن![٢].

فلنحاول أن نلقي نظرة في داخل قلب من تلك القلوب التي آمنت بالله ، لنتعرف على مسار الإيمــان في ذلــك القلب ، ونتعرف على آثار التربية الإسلاميّة فيه .

كيف صنعت العقيدة الصحيحة في ذلك القلب ، وكيف أثرت في سلوكه العملي ؟

لقد كان ، قبل لحظات من إيمانه ، فرداً من أفراد هذا المجتمع الجاهلي ، يفكر بــتفكيره ، ويــشعر بمــشاعره ، ويتصرف بمفاهيمه وعاداته وسلوكه ، ويعطي نفسه مكانه فيه في القمة أو الحضيض بحــسب دســتوره وشــريعته السائدة ، وعلى مقتضى القواعد والقيم التي يضعها ذلك الدستور ، فإن كان ذا مال وبنين وحسب ونسب فهــو في مركز من مراكز القيادة ، وإن كان صفر اليدين فهو مجرد واحد من القطيع . اهتماماته هي اهتمامات هذا المجتمــع الجاهلي : القبيلة ومفاخرها و(أيامها) ذات الذكر ، وهل باتت مغلوبة أم غالبة . وتجارته إن كان صاحب تجــارة أو السعي على قوته إن كان من الفقراء المستضعفين في الأرض . وسهرة الليلة الماضية وسهرة الليلة إن كان من أصحاب السهرات .. أو هموم الليلة الماضية وهموم الليلة إن كان من أصحاب الهموم .. وهذه وتلك كلها في محــيط الأرض ومحيط الحس القريب . والأرباب المختلفة ذات مطالب دائمة تشغل الحس وتؤرق الــنفس ، أو في القليــل تحفزهــا لأدائها : ربوبية الأصنام المعبودة ، وربوبية القبيلة ، وربوبية العرف الموروث مــن الآبــاء والأجــداد ، وربوبيــة الشهوات .. كلها تتنازع نفسه وحسه ، وتخضعه لها واعياً أو غير والمجتمع

ثم .. آمن .

أي انقلاب هائل حدث في نفسه لحظة إيمانه ؟!

إنه –في الحق– أعظم انقلاب يمكن أن يحدث في القلب البشري .. بل في الكون كله !

إنه –لتوه– قد أزاح عن قلبه ربوبية كل الأرباب .. حين عرف رب الأرباب ..

في لحظة انجابت الغاشية ، ورأى الأمر على حقيقته .. إنه لا وجود البتة لكل تلك الأرباب التي كان تستعبده من قبل وتخضعه لسلطانها ! إنها وهم هائل كان يعشش في نفسه وفي خياله ، ويفعل فعله الكامـــل كأنـــه ذو وجـــود حقيقي ، بينما هو في الحقيقة غير موجود !

وإله واحد هو الإله الحق ، وهو صاحب هذا الكون كله ، وصاحب الوجود الحقيقي بين كل هـــذه الأربـــاب المدعاة ..

وفي لحظة .. لحظة الإيمان .. تنجاب من (خانة) العبادة في النفس كل تلك الآلهة المزيفة ويلقى بهـــا في العـــدم ، وتملأ الخانة في التو عبادةً واحدة مشرقة مضيئة .. عبادة الله .

وتتغير محاور الثقل في داخل النفس .. الثقل الأكبر أصبح الآن للعقيدة الصحيحة .. لله . وبقية الأشياء تراجعت أو فقدت ميزانها البتة ، و لم تعد هي المسيطرة على الوجدان .

وتغيرت الصورة ..

لقد كانت صورة هذا الكون في حسه مبهمة غامضة غير ذات دلالة :

﴿ ... **نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلاَّ الدَّهْرُ** ... ﴾ [الجاثية : ٢٤]

وهذه الأرباب المتعددة ، كلٌّ يحكم جانباً من هذا الكون حسب اختصاصه ! ويحكم بالتالي جانباً مـــن القلـــب البشري !

والأمر فوضى أو قريب من الفوضى في الحس وفي الكون . لا رابط ولا ضابط . يستطيع الإنسان أن ينفلت كما يشاء .. إلاّ من سلطان الأرباب المتسلطة : الأصنام والقبيلة وعرف الآباء والأجداد ! وكل شيء يُعمـــل ، أو كـــل شيء ينقضي فقد انقضى بلا رجعة . أو إن كان هناك عقاب من الله وثواب ، فهو في هذه الدنيا .. ومن ثم فإن كان ذا مال وبنين فقد أكرمه الله –لطيبته !– وإن كان قد قدر عليه رزقه فقد أهانه الله

﴿ فَأَمَّا الإِنْسَانُ إِذَا مَا ابْتَلاهُ رَبُّهُ فَأَكْرَمَهُ وَنَعَّمَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَكْرَمَنِ ۞ وَأَمَّا إِذَا مَا ابْتَلاهُ فَقَدَرَ عَلَيْــهِ رِزْقَــهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَهَانَنِ ﴾ [الفجر : ١٥-١٦]

تلك كانت الصورة .. ثم تغيرت الصورة ..

إنّ الكون –كون الله– محكم التدبير لا يتم فيه شيء على الإطلاق إلاّ بقدر من الله ، وتدبير ومشيئة من الله . كل شيء محسوب بدقة معجزة . الليل والنهار . والشمس والقمر . والموت والحياة . والمال والبنون . والرزق المبــسوط والرزق المقدور .. لا شيء يحدث من تلقاء نفسه ، ولا شيء يحدث فوضى بلا تدبير .. ولا شــيء يمــضي بغــير رجعة .. فكل شيء أحصاه الله في كتابه ، ويخرج الكتاب يوم القيامة للناس فيحاسبهم بمقتضى ما سجل فيــه مــن أعمال ومشاعر وأفكار ، وهو المطلع على الأعمال والمشاعر والأفكار :

﴿ ... يَعْلَمُ السِّرَّ وَأَخْفَى ﴾ [طه : ٧]

وأي شيء أخفى من السر ؟! إلاّ خطرات القلب التي يكتمها صاحبها في قلبه ، أو التي لا يدرك هو وجودها ومع ذلك يعلمها الله !

* * *

وحين تتغير الصورة فلا بد أن يتغير السلوك ..

لقد كانت هناك آلهة قائمة في حسه ، يؤمن بوجودها فيتوجه إليها بلون من ألوان العبادة في صورة شعائر تعبدية أو صورة اتباع . واليوم انجابت عن حسّه تلك الآلهة المزعومة ولم يعد في قلبه إلاّ الله . فلا توجه إذن لتلك الآلهــة ، والتوجه كله إلى الله ، ولا شعائر تعبدية ولا اتباع . لقد خلا حسه تماماً من أي شــريك لله ، في خلــق أو رزق أو إحياء أو إماتة أو ضر أو نفع أو تدبير للأمر .. ومن ثم فرغت من حسه كذلك كل التوجهات التي كان يتوجه بها إلى الشركاء ، وحل محلها توجه واحد هائل شامل إلى الله ، الذي يحبه ويخشاه .

ثم .. لقد أحس بحب هائل عميق لرسول الله ﷺ ، الذي هداه إلى هذا الحق ، والذي يأتيه بوحي السماء .

وإن رسول الله ﷺ لشخصية محببة في ذاتها ، فقد صنعه الله على عينه ، وجعله أكمل صــورة لبــشر في تــاريخ الأرض . والعظمة دائماً تحب ، وتحاط من الناس بالإعجاب ، ويلتف حولها المعجبون يلتصقون بها التــصاقاً بــدافع الإعجاب والحب . ولكن رسول الله ﷺ يضيف إلى عظمته المحببة تلك . أنه رسول الله ، متلقي الــوحي مــن الله ، ومبلغه إلى الناس . وذلك بعد آخر له أثره في تكييف مشاعر ذلك المؤمن تجاهه . فهو لا يحبه لذاته فقط كما يُحــب العظماء من الناس ، ولكن أيضاً لتلك النفحة الربانية التي تشمله من عند الله ، فهو معه في حضرة الــوحي الإلهــي

المبجل المكرم ؛ ومن ثم يلتقي في شخص الرسول ﷺ البشر العظيم والرسول العظيم ، ويلتقي في حس المؤمن حــب البشر العظيم والرسول العظيم ، ثم يصبحان شيئاً واحداً في النهاية ، غير متميز البداية ولا النهاية .. حب عميق شامل للرسول البشر أو للبشر الرسول ويرتبط حب الله بحب رسوله ويمتزجان في نفسه ، فيصبحان في مشاعره هما نقطــة ارتكاز المشاعر كلها ، ومحور الحركة الشعورية والسلوكية كلها كذلك ..

هذا الحب الذي يحرك حياته كلها هو مفتاح التربية الإسلاميّة ونقطة ارتكازها ومنطلقها الذي تنطلق منه .

كل شيء في التربية بعده سهل ، مهما كان صعباً في ذاته .. فأما إن لم يوجد ، فستكون أيَّ تربية إلاّ أن تكــون هي التربية الإسلاميّة !

« **لاَ يُؤْمِنُ أَحَدُكُمْ حَتَّى يَكُونَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِمَّا سِوَاهُمَا** » رواه أحمد

« لاَ يُؤْمِنُ أَحَدُكُمْ حَتَّى يَكُونَ هَوَاهُ تبعاً لِمَا جِئْتُ بِهِ »

* * *

ثم لقد أحس ذلك المؤمن من لحظته أن هذا المجتمع الجاهلي ليس مجتمعه ! ليس هناك ما يربطه به . لا وجهته هي وجهته ، ولا أفكاره ومشاعره هي أفكاره ومشاعره ، ولا قاعدة حياته هي قاعدة حياته ..

إنه لم يعد من هذا المجتمع على وجه التأكيد ..

لقد كان إلى ما قبل لحظة إيمانه جزءاً منه ، مترابطاً ومتفاهماً معه ، يتكلمان لغة فكريــة وشــعورية وعقيديــة وسلوكية واحدة . أما منذ تلك اللحظة فقد انقطع الخيط بينهما ، و لم يعد بينهما لغة مشتركة تتفاهم بهــا المــشاعر والقلوب .

لقد أنكر مجتمعه كما أنكر ذاته نفسها حين كانت قطعة من هذا المجتمع . لقد ولى وجهة جديدة ، وأصبح لــه طريق جديد .. فما يلتقيان .

وهل كان له طريق من قبل ؟

نعم . إذا اعتبرنا مجموعة الأفكار والمشاعر وأنماط السلوك اليومي (طريقاً) من أيّ نوع .. ولكنه الآن وقد وجــد الطريق الحق لا يحس إنما كان له طريق ! يحس أنه كان هائماً على وجهه بغير وجهة . يحس أنه كان ضائعاً بغير غاية. يحس أنه لم يكن له وجود حقيقي إنما كان هو ذاته مجموعة من الأوهام لا يربطها كيان ..

وكما يدرك من صورة نفسه قبل أن يجد الطريق الحق ، الواضح المعالم ، المستقيم الخطى ، المحدد الغايــة ، فإنــه هكذا ينظر الآن إلى هذا المجتمع الذي كان من قبل قطعة منه .. يراه هائماً على وجهه . بغير وجهة ضائعاً بغير غاية . ليس له وجود حقيقي إنما هو مجموعة من الأوهام .

ويحس لتوه بالافتراق عن هذا المجتمع .. كل منهما يمشي في طريق . أو أنه هو يسير في طريقه المحدد ، والمجتمــع يهيم في غير طريق ..

وتتقطع الأواصر بينه وبين هذا المجتمع ولو كانت أواصر القربى !

ما الذي يربطه اليوم بهؤلاء القوم ، وهم على عمايتهم وجهلهم بالحقيقة الكبرى التي أنعم الله عليــه بمعرفتــها : حقيقة الألوهية ؟ إنه يحس هذه الحقيقة ملء كيانه كله ، ثم يرى القوم خواء منها ، تعشش في وجــدانهم في مكانهــا خرافات ما أنزل الله بها من سلطان . لقد كان مثلهم تملأ وجدانه الخرافة ؛ ولكنه اليوم وقد تفتحت بــصيرته ينظــر بعين جديدة صادقة النظرة نافذة إلى الحقيقة ، فيستنكر تلك الخرافة ويستبشعها ويستعيذ منها .. ويحمد الله علــى أن نجاه منها وهداه إلى سواء السبيل ..

ويتجه قلبه لتوه إلى كيان آخر ، يلتصق به ويحس أنه أصبح قطعة منه ، ذلك هو رسول الله ﷺ والقلــة المؤمنــة معه، التي أدركت تلك الحقيقة الكبرى ، فالتقت قلوبها ومشاعرها عليها ..

نعم .. هنا متجهه وها هنا ارتباطه ..

هذا هو الجو الذي يستطيع أن يتنفس فيه فلا يحس الاختناق ، ويجد اللغة المشتركة يتحدث بها إلى الآخرين ..

ولكن .. ها هنا عجيبة أخرى لم تكن من قبل !

هذا مجتمع جديد أصبح قطعة منه . نعم . ولكن ما بال هذه المشاعر الجديدة التي لم يكن يجد مذاقها من قبــل ، وما بال هذه الأواصر التي لا يعرف لها مثيلاً فيما مضى من حياته ؟!

مجتمع من نوع جديد ؟؟

ألم يكن يعيش في مجتمع من قبل ؟ وكان بينه وبينه تفاهم ومودة والتقاء في الأفكار والمشاعر وأنماط السلوك ؟

بلى ! ولكن على أي شيء كان يجتمع الناس في مجتمع الجاهلية ، وفيم يجتمع اليوم مع إخوته في الله ورسوله ؟

ألا إنها إذن هي **الأخوة** هنا .. حيث لم تكن هناك ،

لقد كان يجتمع مع لداتٍ له من قبل في المجتمع الجاهلي .. ففيم كانوا يجتمعون ؟ يسمرون مثلا .. في لحظــات الصفاء ؟ .. نعم ! ولكن كل منهم مشغول بذاته . مشغول بإبرازها خشية أن يبرز أحد ذاته أكثر منه ، فيتميــز في المجلس بشيء !

أو .. ينسون أنفسهم في مجلس لهو وشراب فارغ الحديث !

أو يلتقون أو يتصارعون على مصالح التجارة .. !

أو يلتقون في حلف قبيلة وقبيلة ضد غيرها من القبائل ، فيديرون معاً خطة العدوان .. !

أو يروون الشعر أو يتفاخرون بالأنساب .. !

تلك دنيا لقائهم .. وتلك مشاعر اللقاء ..

أما اليوم فشيء آخر لم يذق طعمه من قبل أبدا .. إنها الأخوة .. إنه الحب .. إنه الترابط والالتصاق !

يا لله ! كيف لم يدرك من قبل وهو في جاهليته أن تلك المشاعر التي يتبادلها مع أقرانه ولذاته ليست صافية حقاً ، وإنما يشوبها الهوى ، وتشوبها المصلحة ، ويشوبها حب كل منهم لذاته وحرصه على إبرازها ؟

لقد كان يمارس تلك المشاعر من قبل فلا يحس بكدرها ، ويظنها –هكذا– صافية رائقة رائعة .. ويتحدث بهــذا في شعره على أنها مثل عليا في مكارم الأخلاق ! واليوم ، وقد رأى الصفاء الحقيقي وأحسه ، ومارس مشاعر الأخوّة مع إخوته في الله ورسوله .. اليوم فقط يدرك حقيقة مشاعر الأمس ، ويدرك أن أعلاها وأروعها لم يكن صــافياً في الحقيقة إنما كان مشوباً بالأكدار !

هنا مشاعر من لون جديد في هذا المجتمع الجديد ..

لا مصالح هنا ولا تجارة ولا لهو ولا سمر يجنح فيه كل واحد إلى إبراز الذات ..

هنا حب ..

كل منهم يحب الله ورسوله ، ثم يلتقي بأخ له يحب الله ورسوله ، فتتعانق –لتوها– أرواحهم ، وتلتقي –لتوهــا– قلوبهم ، كل منها يأخذ من معين واحد ، فتلتقي كلها على المعين ، وعلى الأخذ من المعين !

نعم . إنه لقاء مزدوج ولذلك هو عميق ..

إنهم التقوا أولاً لأن كلاً منهم جاء إلى الله ورسوله يتلقى منه ، ويهتدي بهديه ، ويتوجه إليــه .. فــالتقوا علــى المعين.

ثم إنّ أخذهم كلهم من معين واحد ، في وقت واحد ، بطريقة واحدة ، أوجد رابطة جديدة بينهم عمقــت في نفوسهم ذلك اللقاء ، وذلك الالتقاء .. فصاروا كأنهم روح واحد في أجسام متعددة ، أو قلب واحد ينبض في أكثر من كيان ..

وتمت بالتقائهم على هذا النحو خطوة جديدة من خطى التربية الإسلاميّة !

كانت الخطوة الأولى هي **حب الله ورسوله** . والخطوة الثانية هي **الالتقاء على حب الله ورسوله** .

ما الجديد في هذه الخطوة ؟ وما أثرها في (التربية) التي هي موضوع حديثنا هنا ؟ وما الفرق بينها وبين الخطــوة الأولى ؟

* * *

إنّ المخلوق البشري كما خلقه الله كائن ذو شعبتين في آن واحد ، ملتقيتين بلا انفصال ولا تعــارض في هــذا الكيان ..

شعبة فردية ذاتية ، وشعبة جماعية (غيرية) .. كلتاهما جزء منه ، وهو يتكون منهما جميعاً ، ولا بد أن يعملا معــاً ليتكامل كيانه .

من أجل ذلك لا يمكن أن يتربى الإنسان تربية حقيقية متكاملة إلاّ في جماعة .

وعلى أهمية التربية الفردية إلى أقصى مدى الأهمية ، فإنها وحدها لا تنشئ كياناً سوياً للإنسان ، لأن هناك جوانب من النفس البشرية لا تنضج ولا تعمل إلاّ في داخل جماعة فيها أفراد آخرون غير ذات الإنسان . فإذا لم يلتق الإنسان بالجماعة ، أو لم يتعود التعامل معها ، فستظل هذه الجوانب كافة معطلة غير مدربة على العمل ، فتنكمش وتتضاءل ، كما ينكمش ويتضاءل كل عضو لا يستخدم في جسم الإنسان .

كيف تتعامل مع الآخرين ؟ هل تبدأ نحوهم بمشاعر الحب ؟ هل تبدأ بمشاعر الكراهية ؟ هل تبدأ بمشاعر محايدة لا حب فيها ولا بغض ؟ هل تبدأ بشعور من عدم المبالاة ، يستوي عندك أن تعرفهم أو لا تعرفهم ، أن يكونوا سيئين أو يكونوا طيبين ؟

تلك أنواع أربعة متباينة من المشاعر في بدء التعامل ، وهي كلها بدائل على خط واحد من خطوط الاتـــصال . وهناك بدائل أخرى على خطوط أخرى : هل تعاملهم باستعلاء ؟ هل تعاملهم بتواضع لإحساسك بأنك أقل منهم ؟ تعاملهم على أنهم أنداد لك ؟ هل تعاملهم بتواضع وأنت على ثقة من نفسك ؟ تلك أربعة بدائل أخرى على خـــط الإحساس بالذات .

هل تعاملهم وفي حسك أن تسيطر عليهم وتتزعمهم وتخضعهم لك ؟ هل تعاملهم وفي حسك أن تخـــضع لهـــم وتذوب فيهم ؟ هل تعاملهم وفي حسك أنه لا سلطان لك عليهم ولا سلطان لهم عليك ؟ تلك ثلاثة بدائل أخـــرى على خط الإحساس بالسلطان (وهو غير الإحساس بالذات وإن كان مشتركاً معه في بعض مظاهره . ولكن لتوضيح الفارق بينهما نقول : إنك قد تعامل الناس باستعلاء وليس في نيتك أن تسيطر عليهم ، لأنك تحس إحساساً مضخماً بذاتك دون أن تكون لديك نزعة السلطان . ومن هذا النوع أشخاص ممن يسمون أنفسهم أدباء وفنانين ومفكرين ! يستعلون على الناس ولكنهم لا ينـــزعون إلى السيطرة عليهم ، بل قد يعتزلون الناس عزلة كاملة !)

ثم ، هل تتعامل معهم بجفوة دائمة ؟ أم تتعامل معهم برقة دائمة ؟ أم تتعامل معهم حسبما يقتضيه موقفهم ؟ تلك بدائل ثلاثة على خط (المزاج) النفسي للإنسان .

ثم ، هل تنـــزع إلى التعاون معهم إذا حدث ما يستدعي التعاون ؟ أم تنكمش عن التعاون ضناً بجهدك علـــيهم ؟ هذان بديلان على خط الأنانية والغيرية .

وهل تسارع إلى تقديم المعونة أم تتثاقل في تقديمها ؟ هذان بديلان على خط المزاج النفسي ولكن من جانب آخر غير جانب الجفوة والرقة ..

وهكذا .. وهكذا .. عشرات من البدائل على عشرات من الخطوط في ألوان مختلفة من التعامل مع الآخرين ..

متى تنضج هذه (العمليات) النفسية وكيف تنضج إن لم تكن في داخل الجماعة ؟! .

و(الجماعة) من الوجهة الشرعية واجب لا يتم الإيمان إلاّ به ..

ولكننا هنا نتحدث في مجال متخصص هو مجال التربية . فنقول إنها واجب لا يمكـــن أن يـــتم البنـــاء النفـــسي والأخلاقي الصحيح للإنسان إلاّ في داخل الجماعة ، حيث يبرز الجانب الجماعي من الإنسان بصورة تلقائية بحكـــم ضرورة (التعامل) مع الآخرين ، وحيث يمكن للمربي أن يلاحظ أسلوب التعامل ، فيقوّم ما قد يكون فيه من انحراف، أو يثبت ما يجده فيه من استقامة لكي يتأكد وجوده ولا يكون عرضة للانحراف عندما تضغط الظروف على المشاعر والوجدان .

وقد يبدو الإنسان لطيف المعشر حلو الشمائل حين تلتقي به لأول وهلة لقاءً محدود التعامل ، أو لقاءً في فسحة لا تحتك فيه المصالح ولا تحتاج فيه (الذات) إلى البروز .. ثم تفاجأ به ذا جفوة وغلظة ، أو ذا أنانية حادة ، أو ذا نزعـــة إلى التسلط ، أو كسولاً لا يتعاون مع الآخرين ، حين تجمعك به ظروف تضطر الإنسان أن يكشف عن حقيقة ذاته .. وخاصة ظروف الضيق والشدة ، وهي أشد ما يبرز حقيقة الإنسان ..

ومن هنا لا يستطيع المربي أن يعرف طبيعة الشخص الذي يربيه حتى يوجده في جماعة ، ويرقب طريقة تـــصرفه إزاءها ، ثم يقوّم ما يحتاج في نفسه إلى تقويم ..

ونعود الآن إلى الجماعة المؤمنة ، الملتقية في الله ورسوله ، بعد أن نكون لعلنا أدركنا كيف أن التقاء هذه الجماعة على حب الله ورسوله كان خطوة تالية من خطى التربية الإسلاميّة ، بعد خطوة الحب ذاتـــه لله والرســـول . الأولى تكوّن الفرد بكيانه الفردي ، والثانية تكونه بكيانه الاجتماعي ، فيتكامل من هذه وتلك ..

* * *

لقد أحس ذلك المؤمن برباط من نوع جديد يربطه بهؤلاء الاخوة في الله ورسوله .

إنّ كل واحد منهم يحب أخاه كنفسه ، ولا هو من قبيلته ، ولا بينهما آصرة الدم .

بل إنّ آصرة الدم –حين كانت في الجاهلية– لم تكن تنشئ في نفسه ذلك الحب الصافي العجيب الذي يحسه الآن لأخيه في العقيدة الذي لا تربطه به آصرة الدم .. وكم من صراع ومنافسة وتحاسد وتباغض كـــان يكـــوّن قاعـــدة المشاعر بين من تربطهم أواصر الدماء ، وإن تظاهروا بالمحبة رئاء الناس ! أما هنا فلا تحاسد ولا تباغض .. ولكن مودة ومحبة وإيثار ..

حقاً إنها أقوى من روابط الدماء !

ثم إنّ لقاءاتهم السرية مع رسول الله ﷺ تزيدهم ترابطاً وألفة ومحبة ..

إنّ اللقاء في الفسحة قد ينشئ مشاعر طيبة في نفوس الناس .. ولكن المحك الحقيقي هو اللقاء في الـــضيق ! فـــإن تمت المودة في اللقاء على الضيق فهي المودة الأصلية الباقية الثابتة لأنها الخلاصة الصافية من مشاعر النفوس ..

وذلك هو الذي كان ؟ والذي أحسه ذلك المؤمن وهو يلتقي بإخوته في دار الأرقم ، مستترين فيه مـــن بطـــش قريش ؟!

ما الفرق بين لقاء الجاهلية ولقاء الإسلام ؟ !

لماذا أحس ذلك المؤمن بتلك المشاعر الصافية التي لم يكن يحسها من قبل ، ولماذا لا تتذوق الجاهلية طعـــم هـــذه المشاعر ولا تتوصل إليها ؟ لماذا لا توجد تلك المشاعر إلاّ على العقيدة ؟!

إنّ الأمر ليس سراً غامضاً ولا سحراً ، وإن كان أقرب في نظر الناس إلى السحر !

في الجاهلية يتلاقى الناس وقد أبرز كل منهم ذاته بادئ ذي بدء بحثاً عن مصلحته .. فلا تـــتلاحم المـــشاعر ولا القلوب .. لأن هذه البروزات يحتك بعضها ببعض ، في العلانية أو تحت السطح ، فتمنع التلاحم الحقيقـــي ، ولـــو التصق بعضها ببعض –على المصلحة– فترة من الزمان .

وفي الإسلام يلتقي الناس على العقيدة في الله . يلتقون لأن كلاً منهم يحب الله ورسوله . فلا تكون ذواتهم بارزة ولا متوفرة لاقتناص المصلحة من الآخرين . إنما يكون الجانب البارز هو الحب . والحب عنصر سريع التلاحم شـــديد الالتصاق ..

والإنسان المؤمن ليس في حاجة إلى توكيد ذاته بالبروز الزائد عن الحد .. إنه موجود بالفعل ، مطمئن إلى وجوده، يجد ذاته متكاملة في هذه العقيدة ، ويطمئن قلبه بذكر الله :

﴿ **الَّذِينَ آَمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ اللَّهِ أَلا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ** ﴾ [الرعد : ٢٨]

ومن ثم يتعامل تعاملاً سوياً مع الآخرين ، ويستطيع التلاحم معهم في يسر ، لأنه في حيزه الطبيعي بلا زيادة .

ولكن الإنسان الجاهلي يبحث عن وجوده الحقيقي فلا يحسه –وإن زعم لنفسه أنه موجود– ومن ثم ينتفخ أكثـــر من حقيقته لعله يحقق ذلك الوجود المفقود ! ويلتقي الناس ببروزاتهم وانتفاخاتهم المريضة تلك .. فلا يلتحمون ..

بل إنّ الأمر أعمق من ذلك وأعجب في شأن هذه العقيدة وما تنشئه من تلاحم في القلوب والأرواح .

إنّ الإنسان المؤمن لا يكتفي بأنه لا يلجأ إلى الانتفاخ الزائد لإثبات وجوده ، بل إنه –من حبه لله ورسوله ، وحبه لأخيه الذي التقى به في الله ورسوله –ليحب أن يؤثر أخاه على نفسه ، فيأخذ أقل من حيزه الطبيعي الذي يحق له أن يشغله ، فتوجد دائماً فسحة في المشاعر ، لا تمنع الاحتكاك فحسب ، بل تبعده كذلك عن الحدوث !

وذلك من معجزات العقيدة ، ومعجزات التربية على العقيدة :

﴿ ... **وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَة** ... ﴾ [الحشر : ٩]

* * *

ثم إنّ هذا الالتقاء في الله ورسوله ، فوق تربيته مشاعر الحب ، وهي العنصر الأسمى في كيان الإنـــسان ، فإنـــه يضاعف رصيد كل واحد منهم من الخير المستقى من الإيمان .. كأنما كل واحد منهم يتلقى ذلك الخير مـــن خـــلال نفوس إخوته بالإضافة إلى نفسه ، فتتضاعف الحصيلة لكل منهم بذات الجهد المبذول !

وتلك تجربة واقعية يعرفها كل من مارس الحياة في جماعة تؤمن بالله ورسوله ، وتلتقي على حب الله ورسوله .

مجرد التقاء الإخوة يضاعف رصيد كل منهم من الإيمان ، ويضاعف استعداده لتلقي مزيد من الخير والانفتاح على مزيد من الآفاق !

كيف يحدث ذلك ؟

إنه كذلك ليس سراً غامضاً ولا هو بالسحر ، وإن بدا في نظر الناس أقرب إلى السحر ..

إنّ (المشاركة الوجدانية) حقيقة نفسية معروفة . وحين تكون المشاركة في الخير ، يتضاعف الخير ! ويتـــضاعف نصيب كل واحد من الخير !

إنّ رؤية أخ لك على الهدى يؤنس طريقك ، ويشعرك انك لست وحدك على الطريق . ثم إنّ ممارسة الأخوة معه في صورة واقعية تعمق مشاعر الأخوة في نفسك في كل مرة ، وتحس في كل مرة أنك تعيش الإسلام بالفعـــل مـــن خلال مشاعر الأخوة تلك ، فيزيد رصيد المشاعر الإسلامية في نفسك . ثم تتعاونان على الخير ، في جو المودة الـــذي يجمعكما ، فينضاف إلى الرصيد معنى آخر من معاني الإسلام –هو التعاون على البر والتقوى– فيتضاعف الرصـــيد في نفس كل منكما .. وهكذا في سلسلة متصلة الحلقات تَعْمُق مشاعر الإسلام في النفس ويتضاعف رصـــيد الإنـــسان الواقعي منه ، كما يلتقي الصوت والصدى في مكان واحد فيتضاعف الصوت ، أو كالمرايا العاكسة تزيد مـــن قـــوة الضوء .

– للكلام صلة –

---

(١) انظر فصل (لا إله إلاّ الله) في كتاب (من قضايا العقيدة)

(٢) انظر فصل (تربية الروح) في الجزء الأول من كتاب (منهج التربية الإسلاميّة) .